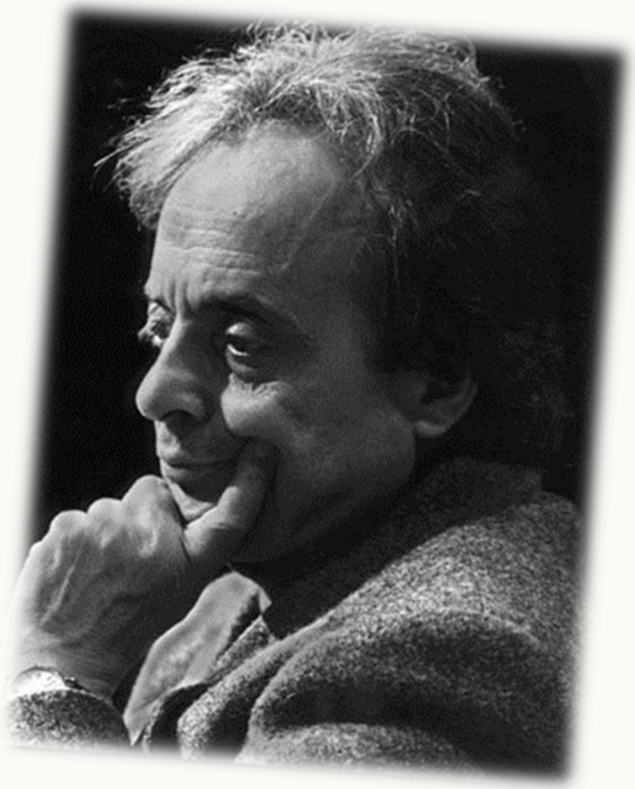

أدونيس والفكر الهدمي الاستشراقي

ملخص

يسعى هذا البحث إلى تبيان مرجعيات أدونيس في تناولاته للنقد العربي ، ذلك أن نقده أسهم في تشكيل رؤية هدمية تجاه التراث العربي القديم عامة ، والإسلامي خاصة ، لما لهذه الرؤية من تعالقات نصية وفكرية مع المنتج الحداثي الغربي ، ثم أن هذا الناقد – أدونيس – أثار جدلاً واسعا فيما يطرحه من أفكار في الساحتين الشعرية والنقدية في الأدب العربي ، وهذا ما حمل كثيراً من المفكرين على الوقوف على نتاجه ، فبعضهم ذهب إلى التعاطف معه ، لتوجهه إلى التغريب وبعضهم حارب أطروحاته الهدمية بشدة ، وبرزت فئة ثالثة حائرة بين بين ، وهذا ما حملنا على البحث في أفكار أدونيس النقدية ، في محاولة منا لإحداث مقاربة تجاه أطروحاته ، وصولاً إلى تجلية بعض الأمور ، وقد تبين للباحث أن أدونيس مهما حاول التملص من بعض المرجعيات التي تشير إلى مسارات إنتاجه السلبية تجاه الفكر العربي ، وتجاه تراث الأمة ، ستبقى هناك مزالق له لا يمكن تجاوزها ، والمرور عليها دونما الإشارة إلى أثرها السلبي ، الذي نرى وجوب الاحتراز منها.

يبدو من المفيد العودة لتصدير الأب "بولس نويا" للثابت والمتحول/الأطروحة ؛ إذ يقوم على هذا التصدير كثير من التساؤلات التي يمكن اعتبارها مشروعة إلى حد بعيد ، إضافة إلى أن هذا التصدير صادر عن ذهنية استشراقية بالدرجة الأولى.

لماذا يشعر "بولس نويا" بالحرج أمام طالب يسجل لأطروحة دكتوراه ؟ هل مرد ذلك توافق ما في البنية الذهنية لكليهما ؟ هو يحاول تصريحاً الإجابة عن ذلك ، لكن هذا التصريح قد يحتمل ما ورائيات ما ، تتوضح من خلال العرض التقديمي للأطروحة ، حيث تتماس ذهنية "بوليس نويا" مع طالبه فكرياً ، حول موضوع الدراسة ، يجسد تحقيقا لمشروع –حلم- يود إنجازه ، وقد تم هذا بالفعل فيما بعد.

إن مثل هذه المشاريع (الحلمية) ، بالنسبة لمستشرق متخصص في الفلسفة والدراسات الإسلامية تمس التراث العربي ، باعتباره مركزا قاعديا يتأسس عليه بنية العقل العربي ، إضافة لكونها بنية تحتية "للكون الإنساني العربي". مثل هذه الدراسات تكون لها أهمية خاصة ، لما لها من أثر ليست لدى الشعوب موضوع الدراسة حسب ، وإنما للذين يفيدون بإطلاق من مثل الموضوع. كانت مضامين الأطروحة الأساسية –كما سلف- حلما من أحلام "بولس نويا" وربما لدى غير واحد من المستشرفين ، وهو لم يتحمس له (المشروع) لولا فهمه الماورائي والعمقي لماهيته ، والأهداف التي قد يتمخض عنها ، بنتيجة الرحلة الاستكشافية المتوقعة في بحر التراث العربي ، إن جاز التعبير.

يشعر الأب ، أو على الأصح ، يستشعر تحقيق الحلم بطريقة منجزة من الآخر ، لاسيما وأن هذا الآخر(شاعر) له تجربة ليست باليسيرة في الشعر العربي ، وهو باحث موسوعي مطلع ؛ من هنا انبثق تحقيق الحلم على أرضية الواقع ، ولهذا نجد "بولس نويا" يقول لطالبه (إنك ستحقق حلما حلمته في شبابي مرتين)[1] ويضيف الدارس –لا بل مرات – بقدر الإلحاحية النفسية والذاتية ، وحتى الإيديولوجية الفكرية على الموضوع.

د.عبد الرحيم عزام مراشدة

رئيس قسم اللغة العربية

كلية الدراسات الأدبية- جامعة جدارا

مدير تحرير مجلة جرش الثقافية

المملكة الأردنية الهاشمية

abd_marashdeh@yahoo.com

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الرحيم عزام مراشدة ، أدونيس والفكر الهدمي الاستشراقي.-دورية كان التاريخية.- العدد العاشر ديسمبر ٢٠١٠.ص ٩ – ١٤.

(www.historicalkan.co.nr)

جاء أدونيس لإنجاز مهمة ، أو على الأقل ، ليسهم في إنجاز هذه المهمة(الحلم لدى الأب)[٢] وكان أدونيس الابن الأكثر نشاطا في حضرة أبيه ، وهنا قد يبدو مناسبا التعريف "ببولس نويا" ، لعل ذلك يشكل مفتاحا ما يسهم في توضيح ما نذهب إليه حول الثقافة العربية ، من وجهة نظر أدونيس.

"بولس نويا" عالم استشراق اهتم بالفكر الإسلامي ، ولاسيما الأبعاد الصوفية منه ، وبدأت اهتماماته هذه بعد التقائه بالمستشرق "ماسينيون"حيث كان لهذا اللقاء الأثر الفعال في توجيه "بولس نويا" نحو الحركات اللافتة في تاريخ الفكر الإسلامي ، إذ كان قبل ذلك يهتم بالنقد الشعري عند العرب ، ويتضح ذلك من قوله (كان حلمي أن أحاول التخصص في دراسة الشعر العربي لأميز ما فيه من الفصاحة والبلاغة ، ولكن لقائي بـ"ماسينيون" غير مجرى حياتي ، فتركت الشعر وانصرفت إلى التصوف).[٣]

انزياحات "بولس نويا" هذه وشغفه بالصوفيات لم يأت اعتباطا أو عبثا ، وإنما كان يتكئ على خلفية ثقافية ، وحلم ثقافي ، ينبعان من مرجعيات أيديولوجية إستشراقيه ؛ وبهذا يكون الانحراف عن دراسة الشعر ونقد الشعر من زاوية بلاغية له ما يبرره. لا يفوت الدارس انتماء الأب"بولس نويا" إلى (اليسوعية) كفرقة- إن جاز التعبير- وهي من الفرق النصرانية اللافتة في الفكر النصراني ، تتجاوز الظاهر في فهمها للنصوص ، وتهتم بالباطن (الماورائيات) ، وكما هو معروف يوجد في الفرق الإسلامية ما يتوازى وهذا التوجه ، فأهل الباطن (الباطنيون) معروفون في الإسلام ، والتعلق بالتصوف ، هو في الواقع يشكل انسجاما مع البنى الفكرية التي تأسست لدى "بولس نويا" ، فإذا كانت اليسوعية تجسد شكلا من أشكال التصوف في الفكر النصراني ، فالتصوف في الإسلام فكر واضح ، وله أثر فعال في بنية العقل العربي ، ويشكل ركيزة أساسية فيه ، ولو حاول المرء تلمس هذا الاتجاه (الباطن –الفكري) لوجد أن أدونيس التلميذ ذهب في المنحى ذاته ، بيد أنه كان الأكثر اقترابا من الموضوع لعلاقاته البحثية ، وبتوجهاته هذه اقترب من الأب في قضايا عدة منها:

١. حين حاول أن يسهم في كشف تحولات بنية القصيدة العربية ، وتتبع مساراتها المضمونية والشكلية ، وتمكن من الوقوف على بعض المفاصل المهمة عبر التراث الشعري ، والفكري ، لفترات تمتد منذ انبثاق الإسلام وحتى مراحل متقدمة من هذا القرن.
٢. ونتيجةً لاطلاعه الواسع ، وإفادته من هذه الرحلة الاكتشافية ، اسهم في تحريك القصيدة العربية ، والنقد العربي ، باتجاه خلافي للسائد في الساحة الأدبية ، ومن هنا مثلا جاءت إسهاماته في القصيدة الحداثية والنقد الحداثي ، ومهدت مع آخرين ، قبل ذلك ، للشعر الحديث_ إن جازت التسمية-الذي سماه "بولس نويا" (المحض) فأدونيس كان يكتب القصيدة غير التقليدية- على الأقل- لكنه تعلق بها كثيرا فيما بعد[٤] ، وربما يكون للأب دور ما في ذلك لاطلاعه على كتاب"هنري بريمون عن (الشعر المحض) ، وقراءاته لأشعار "مالارميه"و"بول فاليري"وآخرين ، وفي المقابل كان قد اطلع على كثير من الشعر العربي ؛ لهذا التفت إلى التحري عن مقاربات ما بين الشعر الغربي والعربي ، وتتبع جذور مثل هذا الشعر – المحض إن وجد ليسهم في دفعه خطوات أخرى للأمام ؛ فكان يتخذ من أشعار مالارميه وفاليري ... معياراً مهماً للشعر الجيد ، بل يراه مثالاً صالحاً للاتباع. وكان أدونيس من التابعين لهذا اللون من الأشعار.
٣. اقتراب أدونيس من الأب في بحثه(في بنية العقل العربي) ، ليؤسس لجدلية " الثابت والمتحول"في تاريخ الفكر العربي ، مع تبنيه – أدونيس - للمنهج الديكارتي[٥] ، (مبدأ الشك) وهو المبدأ ذاته الذي اتكأ عليه من قبل طه حسين ، في بحثه المهم في الشعر الجاهلي ، الذي يضارع منهج (الأب) الهيجلي(نسبة إلى هجيل)الذي يقوم مذهبه على أساس الجدلية أيضاً.
٤. يقول "بولس نويا": (فعندما قرأت كتاب هيجل "تجليات الفكر" ، لاحظت أن هيجل لم يعط أهمية للتجربة الإسلامية العربية ، في مراحل تطور الفكر البشري ، مع أنه لم يكن يجهلها ، فتساءلت ماذا يا ترى سيكون كتاب عنوانه: تجليات الفكر العربي الإسلامي عبر تاريخه ؟ وما الطريقة كتابته ؟ وهل يمكن أن نفهم شيئاً من التاريخ العربي الإسلامي إذا لم يكتب هذا الكتاب ؟)[٦] ، هل هذا يعني أن (الأب المحترم) يود إنجاز ما لم ينجزه هيجل في طروحاته وأبحاثه حرصا على تبيان تطورات الفكر العربي عبر تاريخه ، ولماذا ؟ ، مع أنه في نية هيجل ، لم يلتفت إليه حسب "بولس نويا".

يعتقد الدارس أن القضية أبعد من ذلك بكثير ، إذا ما علم المرء أن (البحّاثة الأب) وجد ضالته هنا ، ليتكئ عليها ، ويؤسس من خلالها مشروعا استشراقيا مهما في الثقافة العربية ، لا حرصا على الثقافة الفكرية والتراث العربيين ، بل حرصا على مرجعيات كامنة في بنيته العقلية الاستشراقية... وقد ظهرت الفرصة في توازي رغبة باحث آخر /وهو الطالب أدونيس/ في إتمام المشروع/ المهمة/ نيابة عن الأب وبتوجيهاته ، وبذلك يكون قد تحقق أمران:

- إنجاز البحث بالكيفية (الحلم) لدى المستشرق.
- تحقيق البحث في بنية الثقافة العربية عبر تاريخها بوساطة بنية عقلية عربية ، وفي ذلك تدعيم للبحث ، معنويا وفكريا ، وتنتفي بالتالي عنه ما يراه العقل العربي كـ(بحث استشراقي).

الفكر الأدونيسي والتراث

يتخذ أدونيس في توجهاته النقدية ، من الرؤية الدينية وسيلة للولوج إلى الثقافة العربية ، وبالتالي إلى فهم البنية العقلية العربية ، وهنا ينتج التساؤل التالي: إلى أي مدى أسهمت الذهنية العربية في تثبيت المعيار الجاهلي ، باعتباره المرجعية المثال لتبعية راحت تنجذب إليها على مدى عصور متتالية ؟! وهذا التساؤل قد ينتجه قول "بولس نويا": (إنها – يعني الرؤية الدينية – ظاهرة إنسانية لو غابت لكانت نتائجها وخيمة بالنسبة إلى التوازن الذهني ، لا أقول هذا لكي أنكر دور الرؤيا – كذا – الدينية في تغلب الاتباع في الشعر ، لكن ربما لم تتوصل هذه الرؤيا من فرض ما فرضته ، إلا لأنها صادفت في بنية الفكر العربي ما ساعدها على تحقيق ما حققته...)[٧] ، ثم إن هذه السطور الالتفاتية للأب تثير لدى الآخر قلقا تساؤليا على مستوى الذهن العربي ، لا سيما في عملية البحث عن العوامل الأخرى المساعدة في ترسيخ الاتباع بشكل سلطوي في الشعر.

إن أول ما يقفز إلى الذهن من العوامل ، (ظاهرة القبول بالارتداد) إلى الماضي ، وهي متجاوزة لظاهرة القبول للسائد ، التي يراها أدونيس

في (مقدمة للشعر العربي)[٨] ، وهذا يفترض حسب "الأب" قابلية بنية العقل العربي للتمحور حول ما كان... ثم يشي السياق بأن البعد الديني تدعّم واكتسب قوته المهيمنة لوجود خلل ما في البنى العقلية السائدة ، كون هذه البنى العقلية تبدو وكأنها مهيأة بنتيجة (الفراغ الديني) — إن جاز التعبير — ويرى الدارس في المنحى الأبوي ما ينقض هذه التوجهات لدى الأب نفسه ، عند قوله بعمومية الظاهرة الارتدادية ، من حيث النكوص إلى الماضي ، بحيث تشتمل الظاهرة الإنسانية بعامة ، إذ هي ليست ظاهرة خاصة بالعالم العربي ، ثم إن الارتداد للماضي يؤدي إلى عدم التوازن في بنية العقل الإنساني. والعقل الإنساني ظاهريا — على الأغلب — محكوم بالتماس والتعلق بما كان والالتصاق بما هو كائن ، إذ ربما يجد في ذلك راحة ما ... إضافة إلى أن الساحة قبل مجيء الإسلام لم تخل تماما من (السلطوية الدينية)[٩] ، مع التحفظ على كلمة السلطوية بهذه الصرامة.

إن الذهنية الإنسانية لا يمكن لها الابتداء علميا بما هو كائن فقط ، وهي غير منطقية بتاتا... لأن الانبتات يعني الابتداء من فراغ ، وهذا لا يستقيم والواقع ، لأن الانقطاع عبر عنه أدونيس في قوله: (لسنا من الماضي. هذا هو الخيط الأول في نسيج الظل. الماضي هو سرنا. الإنسان عندنا ملجوم بالماضي. نعلمه أن يكسر اللجام...)[١٠] ، ثم يتراجع أدونيس بعض الشيء عن هذا القول ، ربما لإدراكه خطورة هذا الانقطاع ، وذلك في قوله في مراحل متقدمة: (إن الشعر العربي الحديث ، أيا كان كلامه أو أسلوبه ، وأيا كان اتجاهه إنما هو تموج في ماء التراث ، أي جزء عضوي منه)[١١].

المنحى ذاته يتضح في أشعاره ، فتارة يشعر المتلقي كأنه إزاء شخصية متعلقة بالماضي ، كما في قوله:

(أكنس العيون في غباري
أتسلل في ألياف الماضي فاتحا ذاكرة الأولين
أنسخ ألوانها وألون الإبر
أتعب وأرتاح في الزرقة
يشمس تعبي ويقمر في لحظة واحدة)[١٢]

وتارة ينسى الماضي ويتعلق بالمستقبل كما في قوله:

(قادر أن أغير لغم الحضارة — هذا هو اسمي)[١٣]

وقوله:

(سيدتي أنا اسمي الغد الذي يقترب — الغد الذي يبتعد)[١٤].

إن العودة للماضي ليست دائما عودة سلبية بإطلاق ، ولا تشكل ثباتا أو سعيا نحو الثبات بإطلاق ، كما يرى "الأب بولس نويا" ، و"أدونيس" بالنسبة لما يسمى بعصر النهضة ، فالارتداد للماضي على مستوى الشعر والنقد في هذه الفترة بالذات ارتداد إيجابي لانهيار البنى القاعدية الأساسية الصالحة للانطلاق ، والبعث والعودة هنا تكون تأسيساً وبناءً ، ولا عودة نكوص وهدم ، وحتى المفهوم الأدونيسي للهدم ينطبق على هذا العصر ، فالهدم هنا (هدم انبناء) — إن جاز التعبير — لا هدم انمحاء ، هدم فينيقي تموزي. وهذا ما حصل بالنسبة لعصر النهضة (من وجهة نظر الدارس).

يتجلى الحنين إلى الماضي في غياب الحاضر المنتج الدافع ؛ فالإنسان في طبيعته يحن للماضي وهي ظاهرة إنسانية — حسب نويا وعلماء النفس — لا سيما إذا كان الحاضر/الزمن دون الماضي خاصة عند إحساس الإنسان باجترار هذا الماضي ، حتى الاجترار حالة تعويضية لأحشاء جائعة تتحرك متجاوزة السكون.

وإعادة البعث هي بمثابة إحياء بشكل أو بآخر ، وتحتاج إلى جهد لا يقل عن جهد الإبداع / وهو تأسيس الإبداع. وقد أحس غير واحد من النقاد العرب عندما أطلقوا مصطلح (الإحياء) على مرحلة "شوقي وحافظ وآخرين"... (قالوا: إن شعر شوقي وحافظ هو من صميم مرحلة الإحياء التي تزعمها محمود سامي البارودي ، والتي قامت لتستهدف ربط حلقات التاريخ ، كانت قد انفصمت عندما نضب الشعر العربي بعد عصور العباسيين)[١٥] ؛ ولهذا يبدو التقليد منتجا وفاعلا ، ويسهم في عملية الخلق والإبداع ؛ لأنه يتخذ بعد التحفيز ، الذي هو تجاوز للمرحلة الآن — الخاوية — وتعلق بالماضي الأقوى ، وبذا يمكن الانطلاق أو التهيؤ — على الأقل — حتى مع توكيد "بولس نويا" على الانقطاع عن الماضي / التراث لتأسيس الشخصية ، حيث يقول: (نحن نعلم منذ فرويد أن الابن لا يستطيع أن يكتسب حريته ويحقق شخصيته إلا إذا قتل أباه. على الإنسان العربي أن يميت تراث الماضي في صورة الأب لكي يستعيده في صورة الابن...)[١٦] ، إذا كان التراث بمثابة الأب عند أدونيس ، ويجب قتله عند نويا ، فكيف يكون شكل الانبعاث إذا؟ هل يكون من فراغ ، من غيبيه؟ هل يكون من ركام مهدم؟ حتى مقولة "بولس نويا" تتضمن فعل الاستعادة لا شعوريا ، وكأنها تحركت على لسانه (فرويديا — نسبة إلى فرويد —).

لا يكون البعث من عدم ، من غيب ، ولا بد من استعادة له: (لكل أمة في التاريخ تراث واحد لا أكثر ، كما للإنسان رأس واحد ولسان واحد ، لا يمكن الاستغناء عن أحدهما إلا في حالات الجنون والانتحار)[١٧] ، وإذا كان لا بد من الاستعادة فإنه يمكن أن يتصور بقاء الجدلية في كيفية هذه الاستعادة... وبذا تضعف مقولة الانقطاع التام ، وبالتالي تكون المقارنة ممكنة مع ما ذهب إليه أدونيس من مراحل متقدمة من نقوده ، كقوله: (إن تجاوز الماضي لا يعني تجاوزه على الإطلاق دائما ، يعني تجاوزا لأشكاله ومواقفه ومفاهيمه ، وقيمه التي نشأت كتعبير عن الحالات والأوضاع ، الروحية والثقافية والإنسانية الماضية ، والتي يجب أن يزول فعلها بزوال الظروف التي كانت سببا في نشوئها)[١٨].

الإنسان العربي في قتله لأبيه/التراث واستعادته في صور الابن ، يظهر وكأنه يريد التنكر للماضي ، لأنه لا بد أن يتشكل هذا المولود بعروق وراثية لأنه يمتلك شعورا جمعيّا ، من الصعب تجاوزه... حتى هذه الشخصية المنجزة ستتحول زمنيا إلى تراث قابل للاستعادة ، هذا الحديث أو شبيهه سيقود إلى الطرائق التي استند عليها أدونيس ، ولاقت ارتياحا لدى أستاذه ، وربما تتضح هذه الطرق من خلال منهج أدونيس البحثي.

يظهر مسار الحداثة عند أدونيس ، منذ طروحاته الأولى والمبكرة في مجلة شعر ، على الصعيدين ، النقدي و الشعري ، فقد جاءت إسهاماته لافتة ، وكانت تبدو مختلفة إلى حد بعيد عند قياسها بغيرها من الطروحات ، ومن هنا كانت تلقى العناية والاهتمام ، من غير واحد من النقاد. وأصبحت طروحاته النقدية ، خاصة ، تتخذ أسلوبية أكثر وعيا وعمقا ، في مرحلة ما بعد شعر ، (لقد مثلت فترة ما بعد شعر ، برأي عدد من الدارسين تغييرا جوهريا في فكره أدونيس)[١٩] ولعل مرد

ذلك إلى تركيز بحثه في التراث العربي بأسلوبية لم يعتدها آخرون من النقاد ، مما حملت غير واحد من النقاد على تناولها ، سلبا أو إيجابا ، تبعا لوجهات النظر لكل منهم.

يبدو أن أهم هذه الطروحات ما جاء به أدونيس في كتاب "الثابت والمتحول" الذي نشر شيء منه قبل الستينات ، فهذا علي الشرع يقول: (والحقيقة أن جزءا كبيرا من هذا العمل قد نشر في فترة الستينيات ، أي قبل انتظام أدونيس في برنامجه الأكاديمي للحصول على درجة الدكتوراه).[٢٠]

هذا الكتاب جاء في فترة هامة ، لعلها تكون بداية إطلالة المثقف العربي على الحداثة بمعناها الواسع والتي وفدت إلى المنطقة من الغرب ، فكان طرح الكتاب في الساحة النقدية العربية ،بهذه الكيفية المنصبة على دراسة التراث العربي النقدي ، خاصة ، مثار جدل واسع ، حرك معه الساحة النقدية وحفزها لإفراز العديد من الدراسات والنقود الهامة ، نذكر منها على سبيل المثال ، مقالات رفعت سلاّم في كتابه "بحثا عن التراث العربي"[٢١] ، ونبيل سليمان في كتابه الموسوم "مساهمة في نقد النقد"[٢٢] وكاظم جهاد في كتابه الموسوم "أدونيس منتحلا"[٢٣] الخ.

إن تناول مسألة الحداثة عبر التراث النقدي العربي ، جاءت عند أدونيس في مرحلة بالغة الحساسية ، حيث طرحت مسألة التراث في الساحة العربية بقوة ، وراح النقاد يتناولونها بطرق مختلفة ، ولكن وفق ما يبدو ، ضمن خلفية أيدلوجية وسلطوية على الأغلب ، فبعضهم وقف إلى جانب التراث متمسكا بأصوله وقداسته ، نظرا لخلفيتهم الإسلامية ، واعتقادهم أن التمسك بالأصول التراثية واجب ديني ، ومثال هذا التوجه نجده عند فكتور سحاب مثلا ، في كتابه الموسوم "ضرورة التراث" الذي يبدو منه النفس الإسلامي ولهذا انبرى للدفاع عن "التراث الإسلامي ، وبعضهم حاول أن يواجه الفكر المعاصر ، تماشيا مع مستجداته الحضارية ، ومثال ذلك محمد عابد الجابري في كتابه الموسوم: "في بنية العقل العربي" الذي أثار جدلا واسعا حول الطريقة التي تناول بها التراث.

يبدو أن أدونيس كان من أوائل الباحثين في التراث العربي: النقدي ، الشعري ، الفكري ، بهذا الأسلوب الجديد.صحيح أن هناك من تناول التراث بطرق مختلفة في هذه المرحلة مع هذه البدايات لأدونيس ، لكن دراساتهم كانت تبدو و كأنها تسير وفق أيدلوجية مسبقة ، فدراسات حسين مروه ، تفوح منها الروح الاشتراكية ، نظراً لخلفيته السياسية وكذلك الحال يبدو محمد دكروب ومثله حسن حنفي...الخ ، من هنا ، تبدو دراسات أدونيس الأكثر توفيقاً على الصعيد النقدي ، لصدورها عن باحث له خلفية شعرية ونقدية عميقة ومتمثلة لفكرة الحداثة.

لاشك في أثر المرجعية الغربية في فكر أدونيس النقدية ، والتي تتضح أحيانا بشكل واضح في تسييره لخطاب الحداثة النقدية " وحتى الشعرية" لديه ، هذا إضافة إلى مخزونه من القراءات في التراث العربي ، حيث لا يمكن استبعاد المصادر الغربية نهائياً في مقولاته وطروحاته ، وهو يصرح بذلك في غير مكان ، فها هو يقول: (لا أظن أحداً يمكن أن يقول إن رينه شار ، مثلا ، أو سان جون بيرس ، أو ميشو ، أو جوف ، أو تولج ، أو بريتون أو بونفوا ، أو دوبرشية ، أكثر حداثة من هيراقليطس ، أو نيتشه ، أو هولدرين ، أو غوته ، أو رامبو ، أو بودلير ، أو مالارمية ، أو لوتر يامون ، إلا بالمعنى الزمني ، وهذا الذي أقوله فيما يتعلق بالكتابة الشعرية الفرنسية ، (وأقوله قصدياً لأن هذه الكتابة هي مرجعيتنا الحداثية الأولى وهذا ينطبق تماماً على الكتابة الشعرية العربية ، فليس أبو نواس ، أو أبو تمام... أكثر حداثة من جلجامش أو أمرئ القيس إلا بالمعنى الزمني[٢٤] ، ثم إن أدونيس يؤمن بأن الحداثة نتاج اندماج ثقافات ، والحداثة العربية هي: (لقاء ديالكتيكي بين ثقافتين عربية وغربية)،[٢٥] هذا الحشد من الأسماء الغربية ، التي ترجم لها أدونيس ، أو اطلع على كتاباتها ، على الأقل ، هي التي أسهمت في حداثته ، وأفاد منها الحداثيون العرب ، ومن وجهة نظر غير واحد من النقاد العرب ، وأدونيس منهم ، وقد كان أكثرهم اتهاما بهذه الإفادة والاتكاء على الثقافة الغربية ، حتى أن بعض النقاد عابوا عليه هذا المنحى ، وذهبوا إلى رصد ما يتعلق بالطروحات الغربية في كتاباته ، وعابوا انزياحاته إلى الحداثة الغربية ، بهذه الكيفية الواضحة ، وبعضهم اتهمه بانتحال أفكار النقاد الغربيين ، أو على أقل تقدير صياغتها بلغة عربية.

يقول جهاد كاظم: (ثمة نادرة بصدد أدونيس المهتم بالشعر العربي مفادها: أن الرجل يعيد طبخ ما لغيره ، تلخص هذه الصيغة بالطبع ما يقعون عليه من شعره ، هنا وهناك ، من أصداء لأعمال الآخرين ، يعيد هو معالجتها أو يذيبها في نسيج لغته)[٢٦] ، ولم يكتف الناقد بذلك ، بل راح يعرض لنصوص أدونيس ، التي راح يقابلها بنصوص لكتاب غربيين لإثبات ما أسماه "انتحالا" ، ولا يود الدارس أن يدحض بعضها تحت ما يسمى "التناص" إلا أن ذلك يشكل إشارة واضحة إلى خلفية أدونيس ومراجعياته الحديثة المستقاة من الغرب ، وإن كان من الصعب لملمة خيوط هذه المرجعية في طروحاته النقدية ، خاصة ، إلا نادراً والسبب في ذلك عدم الإشارة إلى مصادره.

وهذا ما لاحظه ، أيضاً ، نقاد آخرون ؛ فهذا سامي مهدي يقول: (ولا يفوتنا أن نشير ، قبل التوغل في هذا البحث —يعني دراسة لمجلة شعر —إلى إحدى الصعوبات التي واجهتنا أثناء ذلك ، وهي: أن أدونيس لا يشير على الإطلاق إلى مصادره الأجنبية ،أي مصادر المفاهيم التي يقتبسها ، وكأنه يتعمد أن يقطع على الباحثين سبيل الوصول إليها)،[٢٧] إن تغييب مثل هذه المصادر وتوثيقها قد يكون معيباً لكن هذا لا يلغي دور أدونيس في تلمس الحداثة والاسهام بها عربياً ، فهي أن لم تكن نقلت بعض المفاهيم للحداثة الغربية ، فهي ، على أقل تقدير قد عرّفت القارئ العربي بها ، ودفعته للتفكير في مضامينها وممارستها .

ويرى الدارس مع غيره ، أن أدونيس من أوائل النقاد العرب الذي أسهموا في الحداثة العربية وفي تأسيسها ، مصطلحاً ومفهوماً ، وجهده في ذلك يصعب نفيه إن لم يكن مستحيلاً. وهذا ما يثبته بعض النقاد أيضاً ، رغم معارضتهم لبعض أفكاره الحديثة. يقول سامي مهدي:(إذا لم يكن أدونيس أول من أدخل مصطلح الحداثة بمفهومها الشائع اليوم إلى الأدب ، فانه أكثر من شغل به ، ومن حاول إيجاد معادل نظري له ، وذلك يصح القول ، مع بعض التحفظات ، بأن "الحداثة" في الأدب العربي ، من حيث هي مفهوم شامل لمصطلح محدد ، أطروحة أدونيسية).[٢٨]

الحداثة التي سعى إلى إثباتها أدونيس ، وحاول بثها في العالم العربي ، جاءت مشبعة بروافد من الفكر الاستشراقي ، وقد بدت آثار هذه الروافد من خلال معالجة أدونيس للحركات الإسلامية ، لا سيما المتمردة منها على الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية ، حيث رأى فيها المحرك الفعلي لعجلة التغيير والتطور.

إن الاستشراق بمفهومه الغربي خاصة ، جعل من المقولة الأدونيسية في الفكر العربي مقولة هدمية وبنائية في آن ؛ فحركة الهدم في هذه المقولة ، سعت إلى خلخلة السائد والقار لدى الكثيرين من المتلقين والقارئين للتراث العربي ، والسبب في ذلك تركيز أدونيس على السلبيات وعلى مواقع الضعف في التراث ، وكان يكمن وراء هذا التركيز إيمان هذا الباحث بأفكار المستشرقين وبفكرة الشك التي نادى بها ديكارت ، ولم يكن أدونيس هو البادىء بهذا التوجه ، في العالم العربي ، فقد سبقه إلى ذلك طه حسين وأستاذه المستشرق مارجليوث.

أما الجانب البنائي والإيجابي في المقولة الأدونيسية ، في الفكر العربي ، فقد أفادت من حركة النقد في العالم ، لاسيما الجانب المتعلق بالشعر الحديث ، إضافة إلى تطور حركة الترجمة في العالم العربي ، التي أسهم فيها أدونيس ، حيث ظهر إلى جانب آخرين بوصفه ناقدا وشاعرا دافعا لحركة الشعر والنقد في العالم العربي ، فهذا أنسي الحاج يقول: (يبقى أدونيس هو المثال الأبرز على الحداثة العربية).[٢٩] يبدو هذا صحيحا إذا ما أخذ بعين الاعتبار الطروحات الفكرية والنقدية والمقالات المنشورة حول الحداثة في النتاجات العربية حتى المترجمات المهمة.

ملحق: (نشأة أدونيس)

يرتأي الباحث الحالي هنا أن يقدم موجزا لحياة أدونيس ، ويتوقع أن يسلط بذلك الضوء على بعض الجوانب التي يمكن لها أن تكون مؤثرة في مسيرته الإبداعية ، وتحولات البنية الفكرية لديه.

جاء في العدد الثاني من مجلة شعر: أدونيس ، أو علي أحمد سعيد ، ولد في "جبلة" بسوريا ، عام ١٩٣٠ ، وترجم له غير واحد من النقاد ، وأفاد معظمهم أنه قد ولد في قرية (قصابين) ؛ فهذا الدكتور علي الشرع مثلاً يذكر في ترجمته: (ولد أدونيس ، علي أحمد سعيد أسبر ، الشاعر السوري في قرية قصابين القرية الجبلية التي تقع بين اللاذقية وطرطوس في سنة ١٩٣٠).[٣٠]

وفي مقابلة مع أدونيس أجراها نوري فيلتر يقول: (ولدت في ١٩٣٠ في قرية بالغة الفقر ، بالغة الانعزال اسمها قصابين قرب اللاذقية ، في سوريا. موضع فقير على أنه ثري بالنور ، مادام يبعد مسافة سبعة كيلو مترات عن شواطئ المتوسط. ومع هذا فلئن كنت في إدراكي للناس والأشياء ، أظل ذلك الريفي الصغير من قصابين أقصد إذا كانت رابطتي الأصلية ب"لحم" الأشياء تظل في جوهرها ريفية ، فإن الأرض لا يمكن في نظري اختزالها إلى مجال الطفولة وحده. إنني أمنح الأرض بعداً ميتافيزيقيا ، هي في آن الملكوت الأخير للإنسان وهي فضاؤه الأول)[٣١] ، ويبدو أن المجلة "شعر" حدث لديها لبس فيما يتعلق ببلد المولد ، حيث أشارت إلى البلدة المجاورة لقرية قصابين ، كما وضح أدونيس من خلا رسالة موجهة للباحث الحالي[٣٢].

يبدو أن أدونيس عاش في محيط عائلة متواضعة ، أقرب إلى الفقر منها إلى الغنى ، وربما لهذا السبب تأخر عن اللحاق بالمؤسسات التعليمية ، كما رأى بعض الدارسين[٣٣] ، حيث لم يلتحق بالتعليم إلا في الرابعة عشرة من عمره ، وهو يصرح بذلك في قوله: (أنا لم أدخل المدرسة إلا في سن الرابعة عشر ، وقبل ذلك كنت في الكتاب أقرأ القرآن وأتعلم الخط .. وكنت قوياً جداً في قواعد اللغة العربية ، رغم أني كنت طالبا متفوقاً ومحبوباً ، فإني كنت أشعر بالوحدة وبأنه علي أن أقوم بشيء ما يكون مختلفا).[٣٤] وكذلك في قوله :(لقد لقنني والدي منذ الصغر الكثير عن كبار الشعراء العرب ، كامرىء القيس ، والمتنبي ، وأبي تمام ، وكثيرين غيرهم).[٣٥] ومثل هذه المقولات تكشف عن:

- أثر البيئة الريفية في تكوين شخصيته ، لاسيما البيئة المتواضعة الفقيرة ، التي تجعله متحفزا للتغيير. وقد يبدو تأخر التحاقه بالتعليم حافزا للتعويض والعمل بآلية مكثفة ليشق طريقه في الحياة.
- كان لمرجعيات الأب دور واضح في الرغبة بتوجيه الابن باتجاه الأدب ، لكن الشعور بالوحدة على حد قول أدونيس حملته على الالتفات لمسألة الاغتراب وإظهار نفس التحدي لديه.

لم يكتف أدونيس بما تعلمه في بيئته ، وبما يتلقنه تلميذ في مدرسة ، بل حاول السعي لأكثر من ذلك بكثير ، فها هو يحاول تعلم لغة أخرى تعينه على تنمية الحس الاغترابي وتعينه على كشف كثير من المجاهيل ، لاسيما في محاولته للتعرف على أدب الغرب اللغة الفرنسية يقول: (بدأت بديوان "أزهار الشر" لبودلير ، ليتني احتفظت بالنسخة التي استخدمتها ، لأرى فيها ا لعناء الذي كابدته ، استخرجت معاني كلماته كلها تقريبا من المعجم..)[٣٦] هذه الممارسة جعلته يتمكن من الفرنسية في زمن قياسي ، فكان وكأنه يسابق الزمن ليعوض ما فاته من انقطاع عن المدرسة.

بعد أن تمكن من اللغة راح يفكر في السفر إلى خارج القطر السوري ، فكانت المحطة الأولى في لبنان ، وقد أصاب في تفكيره هذا لما حصل عليه من نتائج ، وقد ظهرت حصيلتها فيما بعد حيث انطلق بوهج لافت من بيروت ، حيث كانت بيروت إحدى عواصم الثقافة العربية ، على الأقل ، يقول أدونيس عن بيروت لحظة الوصول: (أذكر أنني ذهلت وفوجئت ولأحسست وكأني ضائع تماماً).[٣٧]

أما التحول الجذري لدى أدونيس فقد ظهر بعد انخراطه في الأجواء الأيدلوجية في عوالم بيروت ، حيث التحق بالحزب القومي السوري ، وأعجب بفكر أنطون سعادة ، وآمن بفكرة سوريا الكبرى التي قادته إلى أول تغريب فكري والتأثر بفكرة البعث والتجدد التي شاعت في أساطير الفينيقيين واليونان ، وما إلى ذلك ، تلك الأفكار التي عزف على أوتارها كثير من الشعراء من أمثال السياب والبياتي ..الخ ، إضافة لذلك كانت الأجواء السياسية مهيأة لانطلاق مثل هذه الأفكار فقد كان الفكر الشيوعي والإشتراكي شائعا على مدى الساحة العربية ، وكانت بيروت تعج بتلاقح كثير من الأفكار الأيدلوجية.

لم يخف أدونيس تأثره بهذه الأجواء ، وقد صرح بذلك عند عرضه لكتاب أنطون سعادة بقوله (قد أطلت نسبيا في عرضه — يعني الكتاب

—لأنه هو الذي كان صاحب الأثر الأول في أفكاري وفي توجهي الشعري ، ولأنه بالإضافة لذلك أثر تأثيراً كبيراً في جيل كامل من الشعراء ، بدءًا من سعيد عقل وصلاح لبكي ويوسف الخال وفؤاد سليمان ، وانتهاء بخليل حاوي ، لكي لا أسمي غير الشعراء الأكثر تمثيلاً للمرحلة الشعرية التي نشأت فيها).[٣٨] هذه الأرضية الفكرية أثرت كثيراً في سحب أدونيس باتجاه الاستشراق والدراسات التي تتعلق بفهم فكر الشرق ، ومن خلال اطلاعه المتواصل على الآداب الغربية والترجمة منها تمكن من شق طريقه المختلفة في الساحة الأدبية العربية ، وهذا ما أعطاه خصوصية لافتة.

ومع دراساته وتحضيره لأطروحة الدكتوراه بدا وكأنه وجد ضالته القصوى بتعرفه على أستاذه بولس نويا المستشرق الذي كان مشبعا بالفكر الإستشراقي المستقى من ماسينيون ، كما هو موضح في متن البحث. لقد شكل هذا الجو التعليمي في الجامعة الانطلاقة القصوى في تكوين فكره الحداثي والمتأثر بشكل واضح بالأبعاد الإستشراقية والتي راحت تتوضح فيما بعد من خلال طروحاته النقدية والفكرية وحتى الشعرية.

الحواشي

١- أدونيس (علي أحمد سعيد) الثابت والمتحول ، ج ١ ،بيروت ،دار العودة ،ط ٤ ١٩٨٣ ،ص ٩.
٢- لا أعني هنا البعد الديني لكلمة أب فقط ،بل يضاف إليها ما أمكن من المفهوم العرفي والاجتماعي والفكري.
٣- أدونيس(علي أحمد سعيد)الثابت والمتحول ،ج ١ ،ص ٩.
٤- راجع ما صدر عنه من أشعار حيث ضمن كثيرا في المجموعة الكاملة ، الصادرة عن دار العودة ،!)١٩٨٨.
٥- يقول ديكارت : (أنا أشك إذا أنا موجود) ويبدأ من هذه الجدلية لفهمه للحياة والوجود.
٦- أدونيس (علي أحمد سعيد) الثابت والمتحول ، ج ١ المقدمة.
٧- المصدر السابق.
٨- أدونيس(علي أحمد سعيد) مقدمة للشعر العربي ، بيروت ن دار العودة ١٩٧٩، ص ٣.
٩- عبادة الأصنام هي لون من ألوان التدين ، إضافة إلى وجود النصرانية وبقايا اليهودية ورواسب من ديانات أخرى شائعة في حينها.
١٠- أدونيس (علي أحمد سعيد) زمن الشعر ، دار العودة ،ط ٢ ، بيروت ،١٩٧٨ ، ص ٢٥.
١١- أدونيس (علي أحمد سعيد) في الشعرية ،مجلة الكرمل ،ع ٣ ،١٩٨١ ،ص ١٤١ ،وقد ألقيت هذه المقالة في المركز الثقافي الدولي بالحمامات في تونس ،وأضافها أدونيس إلى كتابه الشعرية العربية الصادر عن دار الآداب عام ١٩٨٥.
١٢- أدونيس (علي أحمد سعيد) الأعمال الكاملة ،ج ١ ، بيروت ، دار العودة ،ط ١٩٨٨ ،٥ ،ص ٤٠٥.
١٣- المصدر السابق ، ج ٢ ، ٢٧٣.
١٤- المصدر السابق ،ص ١٦٨.
١٥- العشماوي(محمد زكي) دلائل القدرة الشعرية عند شوقي ، مجلة فصول ، مجلد ٣١ ، ع ١ ، ١٩٨٨ ،ص ١١.
١٦- أدونيس (علي أحمد سعيد) الثابت والمتحول ،ج ١ ،ص ١٦.
١٧- الماغوط (محمد) قضايا الأدب والأدباء ،ع ١ ، ١٩٦٢ ،ص ٧٥.
١٨- أدونيس (علي أحمد سعيد)مقدمة للشعر العربي ،ص ١١٥.
١٩- المصدر السابق ،ص ٤١.
٢٠- الشرع(علي) بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس ، دمشق ، اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٨٧ ،ص ٢٢.
٢١- المصدر السابق ،ص ٢٦.
٢٢- سلام (رفعت) بحثا عن التراث العربي ، بيروت ،دار الفارابي ، ١٩٨٩ .وبعض المقالات المنشورة له في المجلات العربيى لاسيما ما تعلق منها في الأدب والتراث في مجلة الآداب.
٢٣- سليمان (نبيل) مساهمة في نقد النقد ، اللاذقية ، دار الحوار ، ١٩٨٦.
٢٤- كاظم (جهاد) أدونيس منتحلا ، المغرب ، دار أفريقيا الشرق ، ١٩٩١.
٢٥- أدونيس (علي أحمد سعيد) النص القرآني وآفاق الكتابة ، دار الآداب ، ١٩٩٣.
٢٦- أدونيس (علي أحمد سعيد) فاتحة لنهايات القرن ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٨٠ ، ص ٧٥.
٢٧- كاظم (جهاد)أدونيس منتحلا ، ص ٢٧. لمزيد من المعلومان يمكن مراجعة النصوص النقدية والشعرية لأدونيس ، والمقابلة بينها وبين الأصول الغربية. وهناك غير ناقد قد أشار لهذه القضية ، منهم على سبيل المثال: المنصف الوهايبي ، وعادل عبد الله ، وسام مهدي.
٢٨- مهدي (سامي) أفق الحداثة وحداثة النمط ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية ، ١٩٨٨ ، ص ١٥٧ ، ويفرد سامي مهدي في هذا الكتاب نصوصا لأدونيس يقابلها بنصوص لكتاب غربيين ، ولكن بحدية أقل من جهاد كاظم.
٢٩- المصدر السابق ، ص ٢٩.
٣٠- الشرع (علي) بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس ، دمشق اتحاد الكتاب ، ١٩٨٧ ، ص ٩.
٣١- جهاد(كاظم) ،أدونيس منتحلا ، الدار البيضاء ، دار أفريقيا الشرق ، ١٩٩١ ، ص ١٦٣.
٣٢- في رسالة من أدونيس موجهة للباحث ، جاء فيها (ولدت في قصابين ، وهي قرية مجاورة لجبلة /المدينة- والإلتباس يعود إلى هذه المجاورة ، الرسالة مؤرخة في ١٩٩٢/١٢/٢٨ . راجع الرسالة في صدر كتابنا: أدونيس والتراث النقدي ، اربد ، دار الكندي ، ١٩٩٥.
٣٣- راجع مثلا الشرع ، بنية القصيدة القصيرة ، ص ٩ وما بعدها.
٣٤- المصباحي(حسونة) حوار مع أدونيس ، مجلة فكر وفن ،ع ٤٥ ، ١٩٨٧ ، ص ٤٥.
٣٥- أبو كف (أحمد) حوار مع أدونيس ، مجلة الهلال ،ع ٩ ، ١٩٦٧ ، ص ١٥٥.
٣٦- أدونيس (علي أحمد سعيد)ها أنت أيها الوقت ، بيروت ، دار الآداب ، ١٩٩٣ ،ص ٢٤.
٣٧- المصباحي (حسونة) حوار مع أدونيس ص ٤٥.
٣٨- أدونيس(علي أحمد) سعيد هاأنت أيها الوقت ١٠٧.

من مؤلفات الدكتور عبد الرحيم مراشدة:

- الفضاء الروائي/ الرواية في الأردن أنموذجا٢٠٠٢ ، منشورات وزارة الثقافة الأردنية وصدر ضمن سلسلة كتاب الشهر.
- منازل النص/ خالد الكركي ناقدا وأديبا صدر عام (٢٠٠٧) صدر بدعم من وزارة الثقافة الأردنية .
- (شفيق ارشيدات حياته وفكره الثقافي- جمع وتحرير بدعم من وزارة الثقافة)، منشورات ملتقى أربد وبدعم من وزارة الثقافة الأردنية عام ١٩٩٧ .